ديستوبيا المدينة في نصوص الشاعر العراقي كامل حسن الدليمي

الباحث خالد هادي ناجي الموسوي
طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فردوسي مشهد، إيران
Khalid.hadi@qu.edu.iq
الدكتورة بهار صديقي (الكاتب المسؤول)
الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فردوسي مشهد، إيران
Seddighi@um.ac.ir
الدكتور أحمد رضا حيدريان
الأستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فردوسي مشهد، إيران
heidaryan@um.ac.ir

The city's dystopia in the texts of the Iraqi poet Kamel Hassan al-Dulaimi

Researcher Khalid Hadi Naji Al-Musawi
PhD student in the Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Human Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran
Dr. Bahar Siddiqui (responsible writer)
Assistant Professor, Arabic Language and Literature, College of Arts and Human Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran
Dr. Ahmed Reza Heydarian
Professor, Arabic Language and Literature, College of Arts and Human Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran

الملخص:-

الديستوبيا أو خراب المدينة هو مفهوم ترسخ في الادب العربي من خلال ما ظهر من خراب بعد الحرب العالمية الأولى وساد الأوساط الادبية وهو صورة من صور سوء الاحوال العامة للمدن وسكانها فهو يعكس تردي وخراب الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية ولكن بأسلوب ادبي يسوق للمتلقين بطرق واساليب مختلفة تتعلق بثقافة ووعي الاديب، فضلاً عن أن الديستوبيا ظهرت في السرد الروائي اجلى من ظهورها في الشعر لكنها تسللت للشعر الحديث عن طريق الشعراء الحاذقين والمدركين لماهية هذا المصطلح ومنهم شاعرنا موضع البحث، والديستوبيا ظاهرة شعرية رافقت ازمات المجتمعات حين تتعرض للظلم والاضطهاد، وهي النظرة التشاؤمية التي ينظر من خلالها للمدن المهدمة المخربة والمحترقة ولا يفوتني هنا الاشارة أن المصطلح ظهر حديثاً كما سيتم توضيح تاريخية ظهوره.

وقد استخلصنا من خلال هذا البحث المصغر وعي الشاعر بخراب الاحتلال ومحاولته سلب الهوية الوطنية من خلال ممارسة الخراب على المستويين المادي والمعنوي.

الكلمات المفتاحية: أدب الديستوبيا، اليوتوبيا، كامل حسن الدليمي، العراق، توماس مور، المخيال الشعري، خراب المدينة.

Abstract:-

The concept of dystopia or the desolation of the city is ingrained in Arab literature as a result of the desolation that emerged after the First World War and the dominance of the literary circle. It depicts the widespread misfortune of cities and their residents. It reflects the decline and ruin of the political, economic, social, and even intellectual aspects, but in a literary manner, recipients are marketed in different ways and methods relating to the culture and consciousness of the discipline, as well as the fact that the dystopia appeared in the narrative more obviously than its appearance in poetry, but it infiltrated modern poetry via the astute poets who are aware of what this term means, including our poetry in question. When societies are subjected to injustice and persecution, dystopia is a poetic phenomenon that accompanies their crises. This is the pessimistic perspective through which destructive and charred cities are perceived, and I cannot fail to mention that the term has only recently emerged, as will be illustrated in the following section. This mini-research has revealed the poet's awareness of the ravages of the occupation and his attempt to take national identity by means of physical and moral devastation

Key words: dystopian literature, utopia, Kamil Hassan al-Dulaimi, Iraq, Thomas more, poetic imagination, the ruin of the city.

مقدمة البحث:ـ

أولاً - الإشكالية:

لاشك أن أدب الديستوبيا، أو كما يمكن ترجمته بأدب المدينة الفاسدة أو أدب النهايات، أحد الأنواع الأدبية المندرجة تحت أدب الخيال العلمي. فمصطلح الديستوبيا هو الوجه المغاير لمصطلح اليوتوبيا وهي كلمة ذات أصل إغريقي تعود إلى الفيلسوف أفلاطون، ولكن ما هو مؤكد وثابت أن الكاتب توماس مور هو أول من استخدم مصطلح يوتوبيا عام ١٥١٥م في تسمية روايته المتعلقة بالجزيرة الخيالية. وتنطلق اشكالية البحث من خلال (المدينة الخراب) التي وصفها الشاعر ضمن اطار عمل على المخيال الشعري وفعله في وصف تلك المدينة المتخيلة، وهنا يبدو ان المفردة وظفت شعرياً في نصوص شعرية معبرة عن خراب المدينة.

ثانياً - أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث من خلال:

١- قلة الدراسات المتخصصة بالديستوبيا في الشعر والنظرة للمدينة الخراب في ظل الاحتلال الامريكي للعراق بعد ٢٠٠٣م وما انتجه الاحتلال من تردي المدينة على كل الصعد.

٢- اشتغالات الشعراء في هذا الفضاء المعرفي من خلال وعي وثقافة الشاعر واحساسه بخراب المدينة.

٣- ثراء قصائد الدليمي بالنظرة التشاؤمية مع استمرار وجود الاحتلال وانعكاساته.

ثالثاً - بعض موارد البحث:

هناك الكثير من المصادر التي تحدثت عن الديستوبيا بوصفها عالجت النظرة الروائية لخراب المدينة ومن بين ابرز المصادر التي تم اعتماد بعضها في هذا البحث الموجز: كتاب:جاكوبى، راسل. (٢٠٠١)، نهاية اليوتوبيا (السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة)». ترجمة فاروق عبدالقادر. الكويت: عالم المعرفة. العدد ٢٦٩. كذلك كتاب جيجيك،

سلافوي. (٢٠١٣) سنة الأحلام الخطيرة. ترجمة أمير زكى. القاهرة: دار التنوير. كذلك حسانين، معتز. (٢٠١٦).(الديستوبيا: المستقبل المخيف في الأدب العالمي». نون بوست.، ٢٠١٦. وذبيان، فوزي.(٢٠١٧.)أورويل في الضاحية الجنوبية. لبنان: دار الآداب. ومصادر اخرى سترد مفصلة في متن البحث.

رابعاً – ما يميز هذا البحث:

يتوجه البحث لدراسة جدلية المدينة التي خلفها الاحتلال الامريكي في العراق من خلال النص الشعري الحديث ومتابعة الصورة الشعرية المعبرة عن هذا الخراب فضلاً عن دراسة مديات التمرد والرفض للاحتلال بكل اشكاله وصيغه ونظرة الشعراء لما يجري في الواقع من خلال المتخيل الشعري.

خامساً – سؤال البحث:

ما هي نظرة الشعر الى المدينة الخراب وتجسيد الديستوبيا في النص الشعري الحديث (الشاعر كامل الدليمي انموذجاً)؟.

سادساً – فرضية البحث:

يفترض البحث أن الاحتلال وجه من اوجه الخراب للمدينة وبما ان الديستوبيا تجسيد لوجه ذلك الخراب لذا فان الشعر اداة من ادوات التغيير من خلال الرفض للواقع.

سابعاً – هيكلية البحث:

ينتظم البحث على مبحثين:

المبحث الأول: تنظيري يتصدى لشرح مفهوم "الديستوبيا" ونظرة تاريخية لظهورها وما تهدف إليه من خلال الأدب.

المبحث الثاني: خُصص لتحليل نص من نصوص الشاعر (هنا الحلة) من مجموعة (قيد وطن) وهي تعرض بشكل جلي ديستوبيا المدينة التي يسكنها الشاعر ومن خلالها لبقية المدن العراقية.

ولعل الضرورة من وضع هذا البحث تسليط الضوء على جهود الشعراء في الرفض

للمحتل وتشاؤمهم من استمرار وجوده كأداة للخراب.

ثامناً - أهداف البحث:

يهدف البحث الحالي الى:

١- بيان مفهوم ديستوبيا المدينة وظهور المصطلح في الادب وتطبيقاته.

٢- وضع تطبيقات لديستوبيا المدينة في النص الشعري الحديث ودراسة نصوص مختارة للشاعر.

تاسعاً - منهجية البحث:

يعتمد البحث المنهجين الوصفي والتحليلي اما الوصفي فمن خلال المصادر التي تصدت للديستوبيا في الادب، والتحليلي من خلال التطبيقات الشعرية لنصوص تعبر عن الديستوبيا وفاعلية ذلك على مشهدية الشعرية في العراق بعد الاحتلال الامريكي عام ٢٠٠٣م.

عاشراً: ابرز المحاور:

١- الديستوبيا في الأدب وتبني الدليمي النظرة المتشائمة للمدينة بعد الاحتلال.

٢- لغة الشعر والانزياحات الشعرية المعبرة عن التشاؤم.

٣- الخصائص الفنية في شعر الدليمي

٤- الشعور بالهم الجمعي في نصوص الشاعر

٥- صور الفقر والبؤس في حياة الناس جراء الاحتلال وخراب المدن.

المبحث الأول

مفهوم الديستوبيا ـ المصطلح وتاريخيته

هو ما يعرف بأدب المدينة الفاسدة أو ديستوبيا أو عالم الواقع المرير (بالإنجليزية: Dystopia) هو مجتمع خيالي، فاسد أو مخيف أو غير مرغوب فيه بطريقة ما. وهو عكس أدب المدينة الفاضلة، وقد تعني الديستوبيا مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى، فهو عالم

وهمي ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض، باختصار هو عالم يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته يتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضاً. ومعنى الديستوبيا باللغة اليونانية المكان الخبيث وهي عكس المكان الفاضل يوتوبيا. ولقد ظهرت قصص مثل هذه المجتمعات في العديد من الأعمال الخيالية، خصوصاً في القصص التي تقع في مستقبل تأملي. والديستوبيات تتميز غالباً بالتجرد من الإنسانية، والحكومات الشمولية والكوارث البيئية أو غيرها من الخصائص المرتبطة بانحطاط كارثي في المجتمع[١].

وتتنوع عناصر الديستوبيا من القضايا السياسية إلى القضايا الاقتصادية أو حتى البيئية. فالمجتمعات الديستوبية قد توجت في سلسلة واسعة من الأنواع الفرعية من الخيال العلمي، وعادة تستخدم هذه القصص والروايات لتسليط الضوء على القضايا الموجودة في العالم الواقعي المتعلقة بالمجتمع والبيئة والسياسية والدين وعلم النفس والقيم الروحية أو التكنولوجيا التي قد تصبح الحاضر في المستقبل. لهذا السبب، اتخذت الديستوبيا شكل العديد من التكهنات، مثل التلوث والفقر والانهيار المجتمعي والقمع السياسي أو الشمولية[٢].

وقد ظهرت خلال العصور الادبية الكثير من المصطلحات الدلالية التي نجمت عن فلسفات اجنبية ومصطلح (ديستوبيا) ظهر ضمن المصطلحات اليونانية على الرغم من وجود عدة استخدامات مبكرة معروفة لها، فقد استُخدمت كلمة ديستوبيا بوصفها نقيضًا لكلمة يوتوبيا (طوباوية) من قِبل جون ستيوارت مل في أحد خطاباته البرلمانية عام ١٨٦٨ (مناظرات هانسارد في مجلس العموم) من خلال إضافة السابقة (dys)[٣].

(بالإغريقية القديمة: δυσ، وتعني «سيئ»)، معيدًا تأويل الحرف الأول «U» على أنه السابقة «eu» (بالإغريقية القديمة: εu، وتعني «جيد») بدلاً من «ou» (بالإغريقية القديمة: oὐ، وتفيد النفي). وقد استُخدمت لشجب سياسة الحكومة المتعلقة بالأراضي الأيرلندية: «ربما يكون إفراطًا في الإطراء أن يدعوهم المرء طوباويين، بل ينبغي بالأحرى أن يُطلق عليهم اسم ديستوبيين، أو كاكوتوبيين. درجت العادة على إطلاق صفة الطوباوية على الأمور التي تكون جيدة أكثر من تقبل التطبيق؛ لكن ما يبدو أنهم ينحازون إليه هو أسوأ من أن يمكن تطبيقه.

ويمكن تلخيص الديستوبيا بـ: أنه عالم أو مجتمع متخيل يعيش فيه الناس حياة بائسة وغير إنسانية ومخيفة، وهناك نكهة من الخيال العلمي تقريباً يصفها الشاعر للمتلقي بشكل ساحر، كما لو كان يعطينا لمحة عن عالم الواقع المرير لمستقبل المدينة المنهار الذي تشيع فيه الأنانية المجنونة والكتل المعدنية المتدفقة.

وهو أحد الفروع المندرجة تحت مظلة كبيرة وهو أدب الخيال العلمي، ولأدب الديستوبيا عدة تعريفات ومنها: هو مجتمع خيالي يكون الناس به غير سعداء ومرعوبين ولا يتم معاملتهم بطريقة عادلة أو إنسانية(٤).

باعتبار المصطلح Utopia "المدينة الفاضلة" – هو مجتمع مثالي تعم به مبادئ المساواة والعدالة. فإن كانت اليوتوبيا هي المجتمع المثالي، فالديستوبيا هي عالم كابوسي وغير مرغوب به، وتسعى فيه الحكومات للسيطرة على مواطنيها، وأحداثها غالباً تقع في المستقبل.

من ابرز هذا النوع من الادب ما ظهر في الرواية الاجنبية الغربية بالتحديد منها رواية ١٩٨٤ و مزرعة الحيوان للكاتب جورج أورويل(٥).

التناقض بين الديستوبيا واليوتوبيا

أنشأ بعض أفضل المفكرين والفلاسفة في العالم على مدى أكثر من خمسة وعشرون قرناً من الزمان آراء فكرية متعددة من خلال تقديم أشكال من " الحكمة " و " الحماقة " أطلق عليها أسماء: (اليوتوبيا، الديستوبيا،) وكلاهما يقدمان رؤيتان متعاكستان لمجتمعات يديرها العقل البشري، مبنية على تصورات إما معظمها إيجابية أو سلبية على المجتمع، وتتضمن هياكل عدة بيئية، اقتصادية، سياسية، تكنولوجية،دينية تفسر عقوداً مستقبلية وتصورات محتملة ذات سمات مختلفة، فكلاهما يحاكيان نماذج لمدن إما "مثالية أو بائسة "

لهذا نجد أن الحروب الطاحنة هي احد بواعث الديستوبيا التي غالباً ما يتمثلها الشعراء والروائيين وسواهم من المشتغلين في الحقول الأدبية.

فنجد منذ العصور القديمة الكلاسيكية حلم الكتاب والفلاسفة بإقامة المجتمعات المثالية "اليوتوبية " والتي ظهرت بشكل قوي من خلال كتاباتهم المختلفة والتي عكست أفكارهم التأسيسية وأحلامهم لإقامة مدنهم المثالية، وقد ساهم النمو الاقتصادي وتوسيع المعرفة

البشرية في الشعور بأننا يجب أن نكون قادرين على النجاح في خلق مجتمع مثالي ولكن في كثير من الأحيان،أسفرت محاولات بناء العوالم المثالية عن الوحشية والاستبداد،ويبدو أن أحلام اليوتوبيا قد أفسحت المجال أمام الرؤى البائسة الديستوبية للمستقبل القمعي.

فعلى سبيل المثال: قدمت اليوتوبيا تصورات إيجابية بشأن النتائج العلمية وأثرها على الحياة البشرية، بينما الديستوبيا طرحت تساؤلات حول قيمة العلم في مقابل النتائج السلبية له على الحياه الإنسانية. فإن ثمة لكل يوتوبيا ما يقابلها من نقيض ديستوبيا يمثل محاكاة ساخرة لها.

إذ أننا نجد النصوص الديستوبية جميعها تقدم سيناريوهات قاتمة للمستقبل.

أما النصوص اليوتوبية تقدم السيناريوهات الأكثر تفاؤلاً ومثالية للعالم المستقبلي فإذا كانت المدينة الفاضلة اليوتوبيا هي الجنة، فإن الواقع المرير الديستوبيا هو الجنة المفقودة. ويرسم فكر اليوتوبيا التاريخ كونه يؤدي إلى الخلاص أو إلى الفردوس على الأرض، بينما فكر الديستوبيا يرى التاريخ كونه يؤدي إلى عدم الخلاص والجحيم(٦).

عرَّف داركو سوفين المدينة الفاضلة الأدبية بأنها «بنية تاريخية بديلة مبتغاة»، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخيال العلمي باعتباره نوعاً أدبياً شقيقاً ويجب تناولها كبنية لفظية لا كقصة واضحة عن مكان آخر. يساعدنا ربط سوفين للمدن الفاضلة بالخيال العلمي نظراً للتداخل الدائم بين النوعين، ولأن فصل أحدهما عن الآخر لا يرتبط بدقة المفهوم أكثر مما يرتبط بالعزوف الأكاديمي عن تكريس اهتمام نقدي جدي لمجال الخيال العلمي، وهو تحامُل ولَّى زمنه لحُسن الحظ. يسرد سوفين الخصائص العامة لقصص المدن الفاضلة من بينها المكان المنعزل، والمدى البانورامي المميز للوصف، والنظام الرسمي، والاستراتيجيات الدرامية التي تتناقض مع افتراض القارئ عن الحالة الطبيعية.

إن مصطلح اليوتوبيا مصطلح هجين، كما وضَّح العديد من النقَّاد، ويعني «مكان جيد» (يو-توبيا) أو «لا مكان» (أو-توبيا). دخلت الكلمة اللغة عام ١٥١٦ عبر عنوان كتاب توماس مور الشهير الذي يصف جزيرة ذات نظام مثالي في مكانٍ ما من العالم الجديد؛ أيْ في مكانٍ ما من ذلك الجزء من العالم الذي أصبح مفتوحاً للتجارة والغزو الاستعماري. وَضَع مور نموذجاً لقصص المدن الفاضلة المستقبلية عن طريق تقديم روايته في

صورة حكاية يرويها مسافر - يُدعَى في الرواية رالف هيثلوداي - يلعب دور الوسيط بين عالَم القارئ المألوف والعالم الجديد، وقد وضَّح كذلك مَساوئ نوع المدينة الفاضلة؛ وهي ميله إلى الإسهاب وكفاح المجتمع الجديد لتحقيق النظام. تُعتبر هذه النقطة الأخيرة هدفاً نهائياً أكثر من كونها حقيقة في كتاب مور، بما أن الدولة في الرواية تقع داخل منطقة حرب (الكثير من عبيد المدينة هم سُجَناء حرب) وتعاني من عنصريِ الجريمة والمعارضة. يتجاوز مور في معارضته للرغبات المادية والجنسية الحدود التي أقرَّتْها الدولة ويختار عقوبة الإعدام لَمن يرتكب الزنا مرة ثانية. قد نشير كذلك إلى عنصر أخير خارجي وهو وقت كتابة الرواية؛ إذ كان مور يعمل حينئذٍ مساعد رئيس شرطة مدينة لندن، التي كانت محفزاً فريداً لكتابات المدينة الفاضلة البريطانية نظراً لكونها مدينة غير مخططة تنمو بالتراكم. وقد بلغ التلوث والتفاوت الاجتماعي الناتج عن ذلك مستوياتٍ كارثيةً مع أواخر القرن التاسع عشر(٧).

في القرن العشرين تحديداً، حلَّت المدينة الفاسدة (الديستوبيا) عادةً - وهو مصطلح يشير إلى مدينة فاضلة تُعاني خَلَلاً وظيفيّاً - محل المدينة الفاضلة (اليوتوبيا). قد تحمل المدن الفاسدة بُعداً ساخراً، كما في رواية الكاتب الأمريكي من أصل أفريقي جورج سكايلر «نهاية الأَسْود» (١٩٣١) التي تحكي عن عالِم يكتشف طريقة لتغيير لون الجلد لكي يصبح التمييز بين العِرقَيْن الأبيض والأسود أمراً مستحيلاً. ومع انتشار هذا العلاج، يبدأ المجتمع الأمريكي في التفكُّك؛ إذ يتسبَّب العِلْم الجديد في إحداث فوضى، بدلاً من تحقيق التحرر، الذي هو أحد الأهداف الرئيسية لليوتوبيا.

أصبحت عناصر المدينة الفاضلة ذات أهمية محورية لدى كُتَّاب القرن الثامن عشر؛ مثل دانييل ديفو، وجوناثان سويفت، وتوماس سبينس، وروبرت بالتوك صاحب رواية «حياة ومغامرات بيتر ويلكينز» (١٧٥١)، إحدى أُولَيات روايات المدينة الفاضلة التي وضعت المجتمع الآخر الذي تصوره في باطن مجوف لكوكب الأرض. تُقدِّم رواية «رحلات جاليفر» (١٧٢٦) أحدَ أشهر الأمثلة في تلك الفترة على استخدام الرحلات البحرية الرائعة إلى أراضٍ أخرى بهدف دراسة الطبيعة البشرية. وبعيداً عن المناقشات التي تقارن بين المؤسسات في الفصلين الأول والثاني عبر الحوار - وهو وسيط محوري في قصص المدينة الفاضلة - فإن السرد يجسِّد استعارات الحجم ويحقق تفاعلاً معقداً بين وجهات النظر. تُثير دولة ليليبُت إعجاب جاليفر في البداية باعتبارها دولة فاضلة تنتشر في ربوعها الحدائق، لكن

حجم سكانها المصغَّر يغذّي إحساسه بالتفوق. ينعكس هذا الوضع على نحو فظٍّ في بروبدنجناج، عندما تُختزَل قامة جاليفر لتعادل قامة دمية. يُحدث ذلك تأثيراً أشبه بتغير بؤرة الرؤية لدى جاليفر من البُعد إلى التقريب. تشير جميعُ التغيراتِ في المنظور، والإشاراتُ المتعددةُ إلى الأجهزة البصرية، إلى أن إدراك جاليفر للجسد البشري يعتمد على الحفاظ على مسافة معينة؛ ومن ثم الحفاظ على درجة من الوهم. في كل فصول الرواية يشنُّ الكاتب هجمات مختلفة على الغرور البشري؛ غرور التجريب في القسم الثالث، وغرور الانتماء إلى نوع متفوق في القسم الرابع؛ حيث لا يصبح المنطق سمة بشرية. زعم الكثير مراراً وتكراراً أن التغريب هو السمة المميزة للخيال العلمي، في تلك الحالة تفي «رحلات جاليفر» بهذا الشرط مباشرةً عن طريق تحولاتها المعقَّدة في المنظور؛ حيث يتحول جاليفر أكثر فأكثر إلى ضحية تجاربه الخاصة(٨).

المبحث الثاني

تطبيقات الديستوبيا في نصوص الشاعر كامل حسن الدليمي

من الشعراء الذين سجلوا مواقف عن المدينة الخراب منذ مطلع الاحتلال الامريكي للعراق ومن خلال الاعمال التي صدرت له في مطابع عربية مختلفة عمل من خلال بعض نصوصها على استشراف الخراب للمدينة بوصفها الوطن المصغر له ولا نريد الاحاطة بكل اعماله لانها كثيرة بهذا الصدد ونتوقف عند بعض نصوصه التي حملت تلك الرؤية السوداوية عن مستقبل المدن العراقية في ظل الاحتلال البغيض وستكون محطتنا الاولى قصيدة طويلة تحت عنوان (هنا الحلة) والحلة مدينته التي ولد ونشأ فيها وهي تتوسط مدينتي كربلاء والنجف الاشرف على بعد (٤٠كم) عن مدينة كربلاء المقدسة، (٦٠) كم عن النجف الاشرف وهي مدينة تظم أثار حضارة بابل العريقة.

في قصيدته المذكورة تناول الخراب من طرق واساليب مختلفة منها ما ينتمي للسخرية السوداء في الاستشراف لمستقبل الناس واستشعاره خطر المحتل فهو يقول:

ذات صباح، وأنا أنحّر رأس نهاري في مجزرة الوقت.

وقَفتْ على حشد اتعبه الجري

الريحُ تعظ عليه بفك طاعن

كان يحاذر أن يسقط بين أكفٍ ادمنت التصفيق لناعق...

صفق، صفق، صفق يسقط بين يديك الحظ

وتنزل في حقك آيات التبجيل

عفّر حرفك بتراب قوافلهم... سيان لديه السابق واللاحق..[٩]

إن مبدأ الهزء والسخرية السوداء هو من المبادئ التي يلجأ إليها الشاعر أو القاص أو الروائي في بعض الأحيان، وإليها لجأ فوزي ذبيان في رواياته في مكانين مفصليين يلعبان دوراً رئيسياً في عملية استطلاع الخراب القادم،(حشد اتعبه الجري) في مشهدية حقيقية لأناس يلهثون خلف عجلات المحتل لا يعرفون ما يفعلون وهم يصفقون مذهولين لمجهول سيكون الخراب بعينه على المدن العراقية كلها.(صفق، صفق، صفق تنزل في حقك آيات التبجيل) كان المحتل يبحث عن موالين له وانصار فقال بطريقة ساخرة لمداليل التصفيق بأنه بادرة الرضا والركون والإذعان للخراب، وان المدينة الديستوبية (الحلة) كأنها من خلال التصفيق تحلم عبثاً بالمدينة اليوتوبية التي لن تأتي أبداً.

الخصائص الفنية في لغة (هنا الحلة)

بعد النظر إلى العناصر الديستوبية في النص الشعري اسوة بما عليه السرد الروائي ففي الحالتين هناك إخبارية سردية لما حدث وسيحدث

١- لغة النص لغة قلقة متحولة صاخبة تنذر بسوء القادم كما سنرى وهي لغة متغيرة متحفزة زئبقية الدلالة يدركها الحاذق من المتلقين وليست للعامة كما يبدو وهي تفهم انزياحياً في كثير من الأحيان.

٢- يتقلب النص بين الماضي والحاضر ويشير الى مستقبل مجهول يتوجه نحو الديستوبيا بلا ادني شك يقول الشاعر:

(هنا الحلة،

والشطآن تضيق،

ما عاد البلبل يستيقظ حين يهزّ الفجر عليه،

وفيروز الحلة اخرسها نعق غراب)[١٠]

جاء الصراع بين الأنا والآخر هو من المفاهيم التي توجد بكثرة في النصوص الشعرية الناقمة، إلا أن النظرة الديستوبية في هذا النص واضحة بدلالة (الغراب) الذي يشكل مصدر شؤم في الثقافة الجمعية العربية، والرؤية هناك صراعاً بين الانا المتمثلة بنظرة الشاعر لحال مدينته الصامتة بحذر وسكون الاشياء الجميلة بوجود المحتل الامر الذي يبشر بالديستوبية القادمة والتي حدثت فعلاً فزادت الحلة فوق خرابها انواع اخرى من الخراب.

وبسبب شعور الإنسان الساكن داخل المجتمع الديستوبي بانتماء إلى مجتمعه، فيحاول إيجاد طرق للهروب منه. ومن ذلك ما اكده الشاعر في مقطع نصي آخر:

كَذب القائل أن الحلة تنوي التصفيق

وصفي الدين بكل صباح يهجو ملك الطاعون

وحراس قوافله الوقحين

ويعد العدةَ لقراءةِ ما يجعل دود الأرض يولي هرباً من عسكر داود

داود على الابواب بجيش لا يقهر

فارحل يا سرب جراد قذفته الريح وعاث فساد

وعلّق في ذيل هزيمتك قمامة...بغداد[١١]

الفقر والديستوبيا:

يجد الشاعر من خلال طبقة المعوزين والفقراء ملامح التردي والخراب فالجائع همه اسكات غرائزه باي ثمن لذا ذكر جملة (سيان لديه السابق واللاحق) ص٩ وهي اشارات واضحة أن شريحة الجياع هي جزء من الخراب ليس المقصود الخراب المعماري بل النفسي الذي استهدفه الاحتلال الامريكي كجزء من سياسته في التعامل مع الشعوب المحتلة المغلوبة

على لقمة عيشها وهنا يلقي الشاعر أيضاً ضوءاً على الوضع الاقتصادي السلبي الذي استهدف البنية الاجتماعية فهو يقول:

انبيك برجل العشرين تسول

وفتاة عرضت للبيع مفاتنها

فانأ بفتياك بعيدا... كي نبق على قيد وطن(١٢)

المطلوب من المحتل أن يترك لنا على الاقل الوطن رغم ما فيه من خراب وهو نداء ميت لان المحتل مصر على البقاء على الأوضاع كما هي كي يتم الخراب.

أما فوضى المدينة والشوارع، ويمكن أن نجد أن هذه الفوضى بين جنبات النص واضحة وهو خراب يصيب جميع حواس الإنسان.ومن الناحية السمعية، تملأ أصوات زمامير عجلات الاحتلال وخلو الفضاء. من السكينة والحيطة والخوف والحذر الدائم يرسخ تلك الفوضى وبهذا المعنى الشاعر يقول: «الشطآن تضيق... ما عاد البلبل... فيروز)(١٣) كل هذه العلامات السلبية دلالة الخراب النفسي والفكري واليومي المعاش بلا انقطاع والإشارة الأخرى لذلك، صمتت فيروز وسكت البلبل ونعق الغراب وهي نظرة تشاؤمية ديستوبية واضحة لمستقبل الحلة وما ينتظر اهلها من سوء المصير بلا رادع ولا نصير القوى الغاشمة هيمنت تماماً على الوضع وفرضت الخوف وزرعت الارتياب وهو ملمح الخراب.

يستخدم الأدب الديستوبي لتصوير قسم من حياة الإنسان وأوضاعه في منطقة يرى فيها الكاتب أرضاً خصبة لأدبه. والحلة بأجوائها ونهرها الوادع الأرض التي تثير مخيلة الدليمي.تقع في وسط المدينة شط ازلي يمنح المدينة جمالية اخاذة تفسح للمخيلة التحليق في سماء الإبداع والحلة تلك المدينة التي لا يتجاوز سكانها المليون نسمة أو اقل بكثير واقصد المركز والنواحي القريبة من المركز اكتسبت أهميتها الجغرافية من إستراتيجية موقعها وأثارها وحضارتها فهي صاحبة اقدم حضارة على وجه الأرض وسكانها مولعين بالتصوير الخيالي للأشياء بحكم ما منحهم الله من خير عميم لكنها نكصت بوجود الاحتلال كما يشير لذلك الشاعر (ما عادت حين يهز الفجر عليها) وكأنها ماتت.

النتائج:-

من خلال تعقب الديستوبيا في (نص هنا الحلة) للشاعر العراقي كامل حسن الدليمي نخلص الى جملة من الاستنتاجات التي فرضها هذا البحث الموجز عن رؤية شاعر واكب الديستوبيا الامريكي للعراق مدينة تلو اخرى وعبث في البنيان النفسي أكثر من عبثه بالبنى التحتية المتهالكة اصلاً ومن بين تلك الاستنتاجات:

١- كلمة الديستوبيا (Dystopia) فهي مأخوذة من اليونانية بمعنى المكان الخبيث،(Dictionaries Oxford)

٢- الديستوبيا أو العمل الديستوبي عادة ما يعكس الواقع الاجتماعي-السياسي المعاصر ويستنتج أسوأ سيناريوهات وأسوأ الحالات كتحذيرات لضرورة للتغيير الاجتماعي أو الحذر الضروري. كما أن النصوص (السلبية) مخاوف من ثقافة الخراب القادمة كما يقول ذلك. (Guardian:٢٠١٥)

٣- قارئ نص (هنا الحلة) يجد من الصعب في كثير من الأحيان التمييز بين تصورات ذات الشاعر والتصور الجمعي العام بل تقارب الشاعر كثيراً مع الصور المتخيلة لدى المجتمع والواقع الحالي، وصعوبة الترفيه والواقع والتغيير بسهولة لما شاع من الخراب. وأخيراً يمكن القول ان الأدب الديستوبي أو أدب المدينة الفاسدة أو أدب الواقع المرير، هو مجتمع خيالي مخيف أو غير مرغوب فيه، تسوده الفوضي، ومن أبرز ملامحه الخراب والقتل والقمع والفقر والمرض. وهو يأتي في مقابل أدب اليوتوبيا (Utopia (أي أدب المدينة الفاضلة؛ واليوتوبيا بمعنى المكان الفاضل الذي ينشد السعادة لسكانه. وهذا ما ركز عليه الشاعر (الدليمي) في نص من اقسى النصوص التي تناولت المحتل الأمريكي(هنا الحلة) مجموعة (قيد وطن).

هوامش البحث

(١) بوجميلين، مصطفى، إشكالية اللغة السردية في كتابة في نظرية الرواية لعبد الملك مرتاض ـ قراءة نقدية،. رؤي فكرية. الجزائر: جامعة سوق أهراس. العدد الثالث،٢٠١٦،. ص.١٢٠ -١٠٧

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٣) جاكوبى، راسل، نهاية اليوتيوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبدالقادر، الكويت: عالم المعرفة. العدد ٢٦٩.،٢٠٠١، ص٢٠-٢١

(٤) جيجيك، سلافويسنة الأحلام الخطيرة. ترجمة أمير زكى. القاهرة: دار التنوير. حسانين، معتز. ٢٠١٦، ص١٠٦.

(٥) ذبيان، فوزي، الديستوبيا: المستقبل المخيف في الأدب العالمي، مجلة نون بوست.. (العدد(١٤) ٢٠١٦. ص٢٠١.

(٦) الموقع الالكتروني : https://www.hindawi.org/books/51941468/4/، تاريخ الزيارة: ٢١/٤/ ٢٠٢٣.

(٧) الموقع الالكتروني : https://www.hindawi.org/books/51941468/4/، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/٤/٢١.

(٨) الموقع الالكتروني : https://www.hindawi.org/books/51941468/4/، تاريخ الزيارة: ٢١ / ٤/ ٢٠٢٣

(٩) كامل حسن، قيد وطن، ط١، ٢٠١١، ص٧-٨

(١٠) كامل حسن، قيد وطن، ص١٠

(١١) كامل حسن، قيد وطن، ص١١

(١٢) كامل حسن، قيد وطن، ص١٠

(١٣) كامل حسن، قيد وطن، ص١١.

قائمة المصادر والمراجع

- بوجميلين، مصطفى، إشكالية اللغة السردية في كتابة في نظرية الرواية لعبد الملك مرتاض ـ قراءة نقدية،. رؤي فكرية. الجزائر: جامعة سوق أهراس. العدد الثالث،٢٠١٦،..
- جاكوبى، راسل،(نهاية اليوتوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبدالقادر، الكويت: عالم المعرفة. العدد ٢٦٩.،٢٠٠١.

- جيجيك، سلافويسنة الأحلام الخطيرة. ترجمة أمير زكى. القاهرة: دار التنوير.حسانين، معتز. ٢٠١٦.
- ذبيان، فوزي، الديستوبيا: المستقبل المخيف في الأدب العالمي،.مجلة نون بوست.. (العدد(١٤) ٢٠١٦.
- كامل حسن، قيد وطن، ط١، دمشق، دار تموز،٢٠١١